المرتكز السادس

فقه السنن

لا شك أن تفقه الإنسان لسنن الله الكونية ، وقوانينه الثابتة ، يجعله لا يستعجل الثمرة قبل أوانها ، ولا يستبطئ نتيجة لتجنب الأخذ بأسبابها ، وإن من يغفل عن هذه السنن ثم يبحث عن النتيجة والأثر أشبه بمن يحرث في البحر ، أو يزرع في الماء ، وهيهات هيهات أن يكون للأول ثمرة أو يكون للثاني نبتة .

ولا شك كذلك في أن مراعاة السنن الكونية وفقهها يجعل الإنسان لا يصطدم بهذه السنن التي كتب الله لها ألا تتخلف ولا تتبدل قال تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر:٤٣) . وقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء:٧٧) .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : وهذا الكون تصرفه سنن مطردة لا تتحول أمام اعتبار فردي ، وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون ، إنما هي السنن المطردة الثابتة [١].

ماذا يعني القرضاوي بفقه السنن ؟

لقد نادى الشيخ بهذا النوع من الفقه وهو « فقه السنن » في كثير من كتبه ، ويعني به : مراعاة سنن الله الكونية والشرعية والاجتماعية التي أقام الله عليها عالمنا هذا ، وقضى بأنها لا تتبدل ولا تتحول[٢]، إنه معرفة آيات الله في الآفاق وفي النفس وسننه في الكون والمجتمع[٣]، وباختصار إنه فقه عن الله فيما خلق.[٤]

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٢٤٦ .
(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ٧ .
(٣) انظر : السنة مصدرا للمعرفة والحضارة ص ٢٠٥ .
(٤) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٢٥ .

سنن الله لا تحابي أحدا :

إن هذه السنن لا تحابي مؤمناً ، ولا تجامل مسلماً ، كما لا تظلم كافراً ، ولا تتجاهل مشركاً ، إنها ثابتة كثبوت الشمس في شروقها من المشرق وغروبها من المغرب ، وكما أن الشمس لا تتخلف في الشروق وإن كفر الناس فكذلك سنن الله تعالى ثابتة لا تتغير ، يقول القرضاوي : ومن المهم هنا العلم بأن هذا العلم ـ أي بالسنن ـ لا يسير جزافاً ، ولا يتحرك اعتباطاً بل كل شيء فيه بقدر ، وكل حركة فيه وفق قانون وهو الذي يسميه القرآن « سنة » ، سواء كانت سنة كونية أم اجتماعية ، وأن هذه السنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ، وأنها تجري على الآخرين كما جرت على الأولين ، وأنها تتعامل مع أهل الإيمان كما تتعامل مع أهل الكفر [1].

وقد كان الشيخ محقاً حين تحدث عن أخذ العبرة من التاريخ كله ليس الإسلامي فحسب ولكن التاريخ الإنساني من مبدئه إلى يومنا ؛ لأن العبرة تؤخذ من التاريخ كيفما كان أهله ، وأينما كانوا ، وعلى أي حال كانوا ، لأن الفريقين ـ المؤمن والكافر ـ كما يقول الشيخ : تجري عليها سنن الله بالتساوي ، ولا تحابي هذه السنن أحداً شأنها شأن السنن والقوانين الطبيعية ، فقوانين الحرارة والبرودة ، والغليان والانصهار ، والضغط والانفجار ، قوانين كونية عامة ، تتعامل مع الموحدين تعاملها مع الوثنيين [2].

ويؤكد الشيخ على هذا المعنى فيقول : كما تتميز هذه السنن بالعموم ، فهي تنطبق على الناس جميعاً ، بغض النظر عن آبائهم وجنسياتهم ، فأي مجتمع أخطأ أو انحرف لقي جزاء خطئه أو انحرافه ، ولو كان هو مجتمع الصحابة أو مجتمع النبي ﷺ ، وحسبنا في هذا ما دفعه الصحابة ثمناً لخطئهم في غزوة أحد[3].

---

(١) انظر : السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ص ٢٠٦ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٠٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٠١ .

سنن ينبغي ألا يغفل عنها الناس :

ولقد عدد الشيخ القرضاوي عدداً من السنن الكونية والاجتماعية التي يغفل عنها الناس وقد يهملها الدعاة في دعوتهم للناس ومن هذه السنن الثابتة التي لا تحابي ولا تجامل ولا تأتي اعتباطاً ولا تكون صدفة :

١- شيوع الانحلال وانتشار المعاصي والمنكرات واختلاف الأوضاع في الأمة ، يقرب ساعة هلاكها وتدمير كيانها ، وفساد أمرها ، ويستدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١)[١].

٢- المنكر إذا ظهر ولم يغير ، وسكت الناس عليه نزلت نقمة الله بهم جميعاً ، الفاعلين لفعلهم والساكتين لسكوتهم ، واستدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٢٥)[٢].

٣- العاقبة للحق وأهله ، والحق منصور وإن طالت محنته ، والباطل زهوق وإن استعلى وتجبر ، واستدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء: ٨١)[٣].

٤- أن الأمة لا تجتمع كلها على ضلالة ، فلا بد أن يبقى في الأرض من يقوم لله بحجة ، ويدعو إلى الخير ، واستدل بقوله تعالى ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨١)[٤].

---

(١) انظر : السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ص ٢٠٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ١١٠ .

٥- أن النصر لا يأتي عفواً ، ولا ينزل اعتباطاً ، ولا يخبط خبطاً عشواء ، بل له سنن وقوانين سجلها الله في كتابه ليعرفها عباده المؤمنون ويتعاملوا معها على بصيرة [١].

٦- سنة التدافع بين الناس ، التي قررها القرآن ، والتي بها يدفع الله الناس بعضهم ببعض ، ولولاها فسدت الأرض ، وطغى الأقوياء على الضعفاء ، وهدمت بيوت العبادة لله من الصوامع والمساجد [٢].

واستدل الشيخ لهذه السنة بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج:٤٠) [٣].

٧- سنة التغيير النفسي أو تغيير ما بالأنفس ، واستدل الشيخ لها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١) ، ويؤكد الشيخ هذه القاعدة القرآنية بقوله : إذا كان الماركسيون يقولون : غير الاقتصاد يتغير التاريخ ، فالقاعدة القرآنية تقول : غير نفسك أو غير ما بنفسك يتغير التاريخ [٤].

٨- سنة التدرج ، فالتدرج سنة من سنن الله في خلقه وشرعه ، فهي سنة كونية سنة شرعية [٥].

٩- أن لكل أجل كتاباً مسمى وهذه السنة متممة للسنة السابقة فلن يبلغ شيء نضجه وكماله إلا بأجل مسمى [٦].

---

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٩ .

(٢) انظر : رعاية البيئة في شريعة الإسلام ص ١٥٤ ، وانظر : فقه الجهاد ط . مكتبة وهبة .

(٣) انظر : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة .

(٤) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢١ .

(٥) انظر : السياسة الشرعية ص ٢٢٧ ، وانظر : ملامح المجتمع المسلم ص ١٨٤ ، وانظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ٥٣ .

(٦) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٠٦ .

هذا عدد من السنن التي طالما أكد الشيخ على مراعاتها في كل عمل دعوي ، حتى لا تضيع الجهود سدى ، أو تذهب الأعمال أدراج الرياح ، وحتى لا يسبح الدعاة ضد التيار ؛ فيجهدون أنفسهم دون أن يصلوا إلى شاطئ الأمان أو بر السلامة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وسوف نلقي الضوء على بعض هذه السنن ، ونخص منها ما أفاض الشيخ الحديث عنها في كثير من كتبه وهي :

١- سنن النصر .

٢- سنة التغيير .

٣- سنة التدرج .

أولاً : سنن النصر :

في مثل هذه الأيام التي تكثر فيها مذابح المسلمين في شتى بقاع الأرض والتي لا يكاد يخلو منها قطر من أقطار أمتنا ، أو مصر من أمصارها ، يقف المسلم ليتابع مجازر المسلمين حسب ما تشتهيه أنفس أعدائهم وتتلذذ به أعينهم؛ فيرى بيوتاً خربت ، ومساجد دمرت ، ومدارس عطلت ، وأطفالاً يتمت ، ونساء أيمت ، وأمهات ثكلى ، يرى هذا كله مع انتفاش الباطل وجرأة الظلم ، فيتساءل كما تساءل الفاروق من قبل يوم الحديبية وهو يقول للنبي ﷺ أولسنا بالمؤمنين؟ أوليسوا بالمشركين ؟ أولسنا على الحق ؟ أوليسوا على الباطل ؟ وفجأة يجهر بها كما جهر المسلمون الأوائل : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢١٤) .

والمسلم الذي يقف يتساءل عن النصر دون أن يعلم قوانينه ، أو يتعامل معه وفق سننه مسلم خاطئ الفهم .

كما أن المسلم الذي يتصور أن النصر يتنزل عليه لكونه مسلما ، أو على الأمة المسلمة لكونها مسلمة فقط ، من كان هذا تصوره فقد غابت عنه السنن الربانية في نصر البشر ، كما تاهت عن عقله القوانين الإلهية في تنزل النصر على الخلق .

وكثيراً ما كان الشيخ القرضاوي ينادي بوضع هذه السنن في الاعتبار وحفرها في الأذهان قبل الإقدام على أي عمل ، ومن ذلك : وقد علمنا ديننا أن للنصر سنناً لا بد أن تراعى ، وشروطاً لا بد أن تستجمع [1].

ويقول : إن للنصر قوانين وسنناً سجلها الله في كتابه الكريم ، ليعرفها عباده المؤمنون ويتعاملوا معها على بصيرة . [2]

وقد عد الشيخ من أسباب نصر اليهود علينا اعتبارهم بسنن الله في الخلق ؛ فيتساءل الشيخ قائلاً : ألسنا أقرب إلى المؤمنين الصادقين من اليهود؟ فلماذا انتصروا ، ولماذا غلبنا؟ [3]

ثم يجيب بقوله : إن اليهود انتصروا بقدر ما اعتبروا بسنن الله في الخلق ، والاعتبار بسنن الله جزء مهم من الإيمان ، وقد ضيعناه نحن ، وحفظوه هم ، لقد استيقظوا ونمنا ، وتعلموا وجهلنا ، وجدوا وتخلفنا ، وتعاونوا وتخاذلنا ، وأعدوا العدة للغد ، ونسينا نحن واجب اليوم . وبذل القوم العرق والدم ، ولم نبذل نحن غير الدمع ، فأي الفريقين في هذا الموقف أقرب إلى منطق الإيمان بالحق ؟

إن سنن الله في الرقي والهبوط ، والنصر والهزيمة ، لا تظلم أحداً ، ولا تحابي أحداً ، من أخذ بأسباب النصر ظفر به ولو كان يهودياً ، ومن سلك طريق الهزيمة أدركته ولو كان إلى الإسلام منتسباً [4].

وإذا كان لله سنن في نصره ، وقوانين في تأييده لخلقه ، فإن الشيخ يؤكد بأن النصر لا يأتي عفواً ولا ينزل اعتباطاً ولا يخبط خبط عشواء [5].

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٩٧ .

(٢) انظر : جيل النصر المنشود ص ٩ .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ١٥٩ .

(٤) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٥) انظر : جيل النصر المنشود ص ٩ .

ولصاحب الظلال كلام رائع في هذا فيقول رحمه الله : والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله .

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا !

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزا ولا غالبا ، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سندا إلا الله ، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه .

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية !

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية [1].

أول سنن النصر : النصر من عند الله :

هذا ما نطق به القرآن الكريم صراحة حين قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾ (آل عمران: ١٦٠)، وقال : ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ١٠).

ويؤكد الشيخ القرضاوي على عدم الإغفال عن هذه السنة مع مراعاة أن الله قد ينصر القلة على الكثرة كما نصر أصحاب طالوت ـ على قلتهم ـ على جند جالوت مع كثرتهم ، وقد ينصر الله من ليس معه جيش ولا سلاح قط كما نصر محمداً ﷺ يوم الغار ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة: ٤٠) [2].

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ج٤ / ٢٤٢٦ ، ٢٤٢٧ .

(٢) انظر : جيل النصر المنشود ص ١٠ بتصرف .

ثاني سنن النصر : الله لا ينصر إلا من نصره :

أي أن نصر الله لا يكون إلا للمؤمنين حقاً ، يقول الشيخ عن هذه السنة إنها قانون جاء بصيغة الشرط والجزاء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد:٧) .

وجاء في صورة الخبر الثابت المؤكد بلام القسم ونون التوكيد : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج:٤٠) [١].

وحقيقة نصرة الناس لربهم إنما تتحقق :

١- نصرة دين الله .

٢- إعلاء كلمته .

٣- تحكيم شرعه [٢].

وإذا توفرت هذه النصرة من الناس لربهم كان حقاً على الله نصرهم ، والقرآن الكريم مليء بالأخبار عن نصرة الله لمن نصره ، ولكن التعبير عنها لا يقتصر على لفظ النصرة فقط ؛ ولكن قد يأتي بألفاظ متغايرة مثل :

١- الإيمان : قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الروم:٤٧) .

٢- الجندية : قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ (الصافات:١٧٣). [٣]

ثالث سنن النصر : النصر لا يكون إلا بالمؤمنين :

إن نصر الله سبحانه لخلقه ليس محصوراً في طريقة معينة فقد يكون :

١- بالملائكة ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ ﴾ (الأنفال:١٢) .

٢- بالريح ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا ﴾ (الأحزاب:٩) .

(١-٢) انظر : جيل النصر المنشود ص ١١ بتصرف .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١١ ، ١٢ بتصرف .

٣- بالمطر ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال:١١) .

٤- بالرعب ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ (الحشر:٢)

ولكن الشيخ القرضاوي يؤكد بأن النصر بهذه الطرق أو بغيرها يتوقف على وجود المؤمنين ، فالملائكة التي نزلت في بدر لم تنزل على فراغ ، بل قال الله لهم : ﴿ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (الأنفال:١٢). وفي غزوة الأحزاب أرسل الله ريحه وجنوده حين ﴿ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١١) . وفي غزوة حنين أنزل الله سكينته ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة:٢٦) [١].

وإذا كان البعض يتوهم نصرة الحق لمجرد أنه حق فإنهم واهمون ، بل في أحلامهم غارقون ، بل الأمر كما يقول الشيخ : لا ينصر الله الحق لمجرد أنه حق، بل ينصره بأهله ورجاله المؤمنين المترابطين المتآخين على كلمة الله ، إن الملائكة موجودة ويمكنها أن تتنزل ـ بإذن الله ـ بالمدد والنصر ، ولكنها لا تتنزل في فراغ وإنما تتنزل به على مؤمنين مجاهدين يجاهدون ويعملون في الأرض.[٢]

رابع سنن النصر : الصبر :

فلا يعقل أن يتنزل النصر على ناس متعجلين ، أو على نفر جازعين ، بل لا بد من الصبر ، وإذا كان الأعداء يزرعون الأشواك في الطريق ويطفئون الشموع التي في الأيدي ، ويضعون الألغام تحت الأرجل ، كما يقول البعض ، فإن الشيخ

---

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ١٣ ، ١٤ بتصرف .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٩٧ بتصرف .

يرد عليهم قائلاً : هنا يأتي شرط لا بد منه لاستحقاق النصر والتمكين هو : الصبر على الأذى وطول الطريق ، والثبات في مواجهة الاستفزاز والتحدي ؛ كما في حديثه ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس : « واعلم أن النصر مع الصبر »[1] .[2]

وهنا يؤكد الشيخ أمراً آخر وهو أن تحقيق النصر الكامل على أيدي المؤملين للنصر ليس هو الغاية وحده ، إن الإنسان يكفي أن يدعو وأن يصف أقدامه على الطريق أما النصر ومجيؤه فهو بأمر الله لا بأمر غيره ، وبيده لا بيد أحد سواه ، يقول الشيخ : إن الذي علينا ، والذي نحاسب عليه ، أن ندعو ونربي ونعمل ، وليس علينا أن نحقق النصر ، علينا أن نبذر الحب ، ونرجو الثمر من الرب ، إن الله لن يسألنا لماذا لم تنتصروا ؟ ولكن سيسألنا لماذا لم تعملوا [3].

ومن شعر الشيخ في سنن النصر :

تبغي الجنان بروح القاعدين ، فدع ... عنك المعالي ، وابغ الخبز والأقطا؟!
أما علمت طريق الخلد قد فرشت ... بالشوك ، ا فرت ورداً ولا بسطا؟!
أم تنشد النصر لم تدفع لـه ثمناً ... ولم تعد له الأسباب و الخططا
للنصر قانونه ، والله فصله ... لا تحسب النصر يأتي الناس معتبطا
من ينصر الله ينصره ، فلا أمل ... في النصر إلا لمن وفى بما اشترطا[4]

ثانياً : سنة التغيير :

يجمع كل الدعاة والمصلحين على ضرورة تغيير وضع أمتنا الراهن ، وأن هذا التغيير لا بد أن يكون مما هو عليه ليرتقي إلى الحسن ثم إلى الأحسن ، وهذا التغيير ولاشك يشمل الأفراد والجماعات ، كما يشمل المؤسسات

---

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩) عن ابن عباس ، وقال محققو المسند : إسناده قوي ، ورواه أبو يعلى (٢٥٥٦) والترمذي (٢٥١٦) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢) .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٩٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٤) انظر : المسلمون قادمون ص ٣١ .

والهيئات ، وإذا كان الجميع متفقاً على التغيير ؛ إلا أنهم يختلفون في طبيعة هذا التغيير ، وشكل هذا التغيير ، وكيفية هذا التغيير .

ومن هنا فقد نادى القرضاوي بفقه التغيير قبل المناداة بالتغيير ، فلا بد من معرفة سنن التغيير ، ولئن كان التغيير السياسي مطلوباً وكذلك التغيير الاقتصادي والثقافي والاجتماعي ، فإن الشيخ يدعو إلى عدم إغفال أساس لا بد منه ؛ لأن هذا الأساس ذكره الله في القرآن في صورة قانون من قوانين الله ، وسنة من سننه الاجتماعية التي لا تتبدل ولا تتغير ، ألا وهو التغيير النفسي ، أو على حد تعبير القرآن « تغيير ما بالأنفس» وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١)[١] .

والقارئ المستبصر لسيرة النبي ﷺ يرى أنه بدأ أول ما بدأ في التغيير : بالنفس البشرية ، هذا التغيير النبوي الذي شمل النفس البشرية ليفتح عقولها المغلقة ، وضمائرها المقفلة وقلوبها الغلف ، ومواهبها الضائعة ، فلما تغيرت النفس البشرية تفتحت معها العقول ، واتسعت الضمائر ، ولانت القلوب ، ووجهت المواهب ، فتغير المجتمع كله تبعاً لتغير النفوس .

ويؤكد الشيخ أن المصلحين والمجددين اعتنوا بهذه القاعدة وبدأوا منها ، ومنهم محمد رشيد رضا ، وحسن البنا ، وابن باديس ، والنورسي ، والمودودي ، وغيرهم ، لأن الإنسان هو الذي يقود التغيير ويفجر الطاقات المبدعة ، وينشئ الحياة الطيبة ، ويصنع الحضارة الشامخة [٢] .

وإذا كان المصلحون يبحثون عن هذا التغير فإن الشيخ يدعو إلى هذا التغيير ، ولكنه يرى عدم إغفال التغيير النفسي قبل تغيير الشعوب فيقول : إن إصلاح الجماعات والشعوب لا يجيء جزافاً ولا يتحقق عفواً .

---

(١) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٢٢ .

إن الأمم لا تنهض من كبوة ، ولا تقوى من ضعف ، ولا ترتقي من هبوط، إلا بعد تربية أصيلة حقة ، وإن شئت فقل : بعد تغيير نفسي عميق الجذور ، يحول الهمود فيها إلى حركة ، والغفوة إلى صحوة ، والركود إلى يقظة ، والفتور إلى عزيمة ، والعقم إلى إنتاج ، والموت إلى حياة . تغيير في عالم النفس أشبه ما يكون «بثورة أو انقلاب» في عالم المادة . تغيير يحول الوجهة والأخلاق ، والميول والعادات ، تغيير نفسي لا بد أن يصاحب كل حركة أو نهضة أو ثورة سياسية أو اجتماعية ؛ ومن غيره تكون النهضة أو الثورة حبراً على ورق أو كلاماً أجوف يتبدد في الهواء [1].

وإذا كان هذا هو الطريق فإن الشيخ يؤكد صعوبته وكثرة تكاليفه ومتطلباته فيقول : ولكن هذا التغيير أمر ليس بالهين اليسير ، إنه عبء ثقيل تنوء به الكواهل ، فإن الإنسان مخلوق مركب معقد ، ومن أصعب الصعب تغيير نفسه أو قلبه أو فكره .

إن التحكم في مياه نهر كبير ، أو تحويل مجراه ، أو حفر الأرض ، أو نسف الصخور ، أو أي تغيير في معالم الكون المادي أسهل بكثير من تغيير النفوس ، وتقليب القلوب والأفكار .

إن بناء المصانع والمدارس والسدود والمنشآت سهل ومقدور عليه ، ولكن الأمر الشاق حقاً هو بناء الإنسان . . الإنسان القادر على نفسه ، المتحكم في شهواته ، الذي يعطي الحياة كما يأخذ منها ، ويؤدي واجبه كما يطلب حقه ، الإنسان الذي يعرف الحق ويؤمن به ويدافع عنه ، ويعرف الخير ويحبه للناس كما يحبه لنفسه ، ويتحمل تبعته في إصلاح الفساد ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتضحية النفس والمال في سبيل الحق .

إن صنع هذا الإنسان أمر عسير غير يسير [2].

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ص ٢٦٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص٢٦٤ ، ٢٦٥ .

لكن هذه الصعوبة وتلك المشقة التي جبلت عليها النفس البشرية ليس لها من مفتاح إلا الإيمان بالله يقول الشيخ : الإيمان وحده هو صانع العجائب ، الإيمان هو الذي يهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات ، وتضحيات ومشقات ، وهو العنصر الوحيد الذي يغير النفوس تغييراً تاماً ، وينشئها خلقاً آخر ، ويصبها في قالب جديد ، فيغير أهدافها وطرائقها ، ووجهتها وسلوكها وأذواقها ومقاييسها . ولو عرفت شخصاً واحداً في عهدين ، عهد الكفر وعهد الإيمان ـ لرأيت الثاني شخصاً غير الأول تماماً ـ لا يصل بينهما إلا الاسم أو النسب أو الشكل .

فالإيمان إذا سكن في قلب ، وتغلغل في أعماقه حول اتجاهه ، وغير نظرته للكون والحياة ، وأحكامه على الأشياء والأعمال ، وعدل سلوكه مع الله والناس ، ولم يقف في سبيل ذلك فتوة الشباب ، ولا كهولة الكهول ، ولا هرم الشيوخ [1].

العقيدة أولاً في أي تغيير :

وإذا كان التغيير مطلوباً ، ومطلوب أن يكون من النفس البشرية ، فإن الشيخ يؤكد على تغيير العقائد التي تسيطر على هذه النفس ؛ فإذا تغيرت العقيدة الباطلة إلى عقيدة صحيحة ، ومحيت عقائد الوثنية بعقائد التوحيد ؛ هان كل شيء بعد ذلك يقول الشيخ : إن صلاح العقيدة وتثبيتها وتقويتها أهم ما يعتمد عليه في تغيير ما بالأنفس ، ولذا كان أول ما يدعو إليه الرسل أقوامهم هو التوحيد ، ولذا ظل رسولنا ﷺ طوال العهد المكي وعمله الأول غرس عقيدة التوحيد وما تثمره من الإيمان بالآخرة وعمل الصالحات ومكارم الأخلاق [2].

ويقول : وأول ما يندرج في تغيير ما بالأنفس هو : تغيير العقائد ، التي تجسد نظرة الإنسان الكلية إلى الوجود ، وموقفه من الخلق والخالق ، والمادة والروح ، والدنيا والآخرة ، والغيب والشهادة .

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ص ٢٦٥ .

(٢) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢٣ .

ولا بد للمصلح الإسلامي أن يطارد المعتقدات الدخيلة على عقيدة التوحيد الصافية ، وأن يرد إلى العقيدة الإسلامية صفاءها ونقاءها وشمولها وتوازنها وتكاملها ، وأن يؤسسها على دعائم من يقينيات العقل والعلم ، وخصوصاً العلوم الطبيعية والرياضية . التي غدت نتائجها سلاحاً في خدمة الدين الصحيح ، وغدا العلماء هم أقوى من يرد على دعاة الإلحاد وجاحدي الألوهية [1].

إن البدء بالعقيدة هو البداية الحقيقية ولا بد أن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها كما لا بد أن يكون لها من ثمرات ؛ وعن هذه الثمرات يقول الشيخ : ومما يثمره تغيير المعتقدات : تغيير المفاهيم والأفكار ، وبخاصة المفاهيم الأساسية عن الإنسان والحياة والتاريخ ، والفرد والمجتمع والرجل والمرأة ، والدين والسياسة [2].

قواعد أساسية في سنة التغيير :

وإذا كان التغيير أمراً دعت إليه الحاجة البشرية والضرورة الشرعية ، فإن هذا التغيير يحتاج إلى فقه في تغييره ، وعلى حد تعبير الشيخ القرضاوي : يحتاج إلى فقه رشيد ، يتجسد في فقه الموازنات ، وفقه الأولويات ، وفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، حتى نحسن سياسة التغيير لأوضاعنا وأنظمتنا الحالية إلى أوضاع وأنظمة إسلامية [3].

وقد وضع الشيخ ثلاث قواعد يجب مراعاتها عند التغيير وهي :

١ – قاعدة رعاية الضرورات : والتي أصل لها علماؤنا في كتب « القواعد الفقهية » وكتب « الأشباه والنظائر » وهي :

- الضرورات تبيح المحظورات .

---

(١) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٣٢٤ .

● ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها .

● الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة .

مع مراعاة أن الضرورات الشرعية ليست كلها فردية بل للمجتمع ضرورات [1].

٢- قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، ودفع أعظم المفسدتين ، والتي استدل العلماء لها بقوله ﷺ لعائشة : « لولا قومك حديث عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم[2] »[3].

٣- مراعاة سنة التدرج : وهي ليست من سنن التغيير فحسب بل هي من السنن الكونية ، كما أنها من السنن الشرعية ، وسوف نلقي الضوء عليها استقلالاً.

ثالثاً : سنة التدرج :

من الخطأ الشائع عند كثير من الناس وبعض الدعاة ، أنهم يريدون إصلاح ما أفسده الدهر في أعوام طوال دفعة واحدة وربما في يوم واحد ، وليس غريباً أن يكون التعبير بضربة واحدة ، وهل يعقل أن يتغير الفساد الذي عم ، والشر الذي طم في عشية أو ضحاها ؟ هل من المعقول أن ينصلح عوج العالم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في غمضة عين ؟ أو بإشارة يد ؟ أو بجرة قلم؟

إن هذا كله مخالف لسنن الله الكونية ومن هذه السنن سنة التدرج ، وقد تعجب الشيخ القرضاوي من هذه العجلة التي جبل عليها الإنسان ، وخصوصاً الشباب في عصرنا هذا ؛ الذي أصبح من طبيعته السرعة ، يقول الشيخ عن هذا

---

(١) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢٦ .بتصرف .

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٤٨٤) ومسلم في الحج (١٣٣٣) عن عائشة .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ بتصرف .

النوع المتعجل : إنه يريد أن يغرس اليوم ليجني الثمرة في الغد ، أو يزرع في الصباح ليحصد في المساء ، ذاهلين أن سنة الله الكونية تأبى هذا ، فالنواة لا تصبح شجرة مثمرة إلا بعد مراحل تقصر أو تطول حسب نوعها وتربتها ومناخها وظروف نمائها إلى أن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها [1].

والشيخ القرضاوي كغيره من الدعاة يرى بأن الزمن جزء من العلاج ، وأن ما أفسد في قرن لن يصلح في يوم وليلة ، ولا في شهر ، ولا في عام ، إن المنكر الذي فطم عليه الرضيع وشب عليه الصغير ، وشاب عليه الكبير ، وفني عليه الشيخ الهرم يصعب على أي مصلح إصلاحه «بضغطة زر» أو «عصا سحرية» إنما ينبغي عليه أن يراعي سنن الله الثابتة ، ينبغي عليه أن يراعي «سنة التدرج» والتي يقول عنها الشيخ القرضاوي بأنها : سنة كونية وسنة شرعية .

أما أنها سنة كونية : فإن الله تعالى قد خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعله نطفة في قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة ، فخلق العلقة مضغة ، فخلق المضغة عظاماً ، فكسا العظام لحماً ، ثم أنشأه خلقاً آخر ، هذا في المرحلة الجنينية ، ثم بعد ولادته يكون طفلاً وليداً ، فرضيعاً ، ففطيماً ، فصبياً ، فغلاماً ، فمراهقاً ، فبالغاً فشاباً ، فشيخاً . . . . إلخ .

كما أنه تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ولم يخلقهما في لحظة، وكان قادراً أن يقول كوني فتكون [2].

وأما أنها سنة شرعية فيقول الشيخ : فإن الله تعالى شرع أول ما شرع في الإسلام : أسس العقائد ، وأصول الفضائل ، ثم بدأ ينشر العبادات بالتدرج ، وقد شرعت الصلاة ركعتين ركعتين ، فأقرت في السفر ، وزيدت في الحضر ، كما روت عائشة رضي الله عنها .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٩١ .

(٢) انظر: الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص١٠٥، وانظر: في فقه الأقليات المسلمة/ص٥٣.

والصيام شرع أولاً على التخيير ثم جاء الإلزام بالصيام ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾(البقرة:١٨٥). والمحرمات حرمت بالتدريج، كما في قصة الخمر.[١]

ماذا يعني القرضاوي بالتدرج :

ويعني الشيخ القرضاوي بالتدرج أنه :

١- تحديد الأهداف بدقة وبصيرة .

٢- تحديد الوسائل الموصلة للأهداف بعلم وتخطيط .

٣- تحديد المراحل اللازمة للوصول إلى الأهداف بوعي وصدق بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها بالتخطيط والتنظيم والتصميم ، حتى تصل المسيرة إلى المرحلة المنشودة والأخيرة التي فيها قيام الإسلام . . كل الإسلام[٢].

ولهذا فإن الشيخ يحذر من أن يكون التدرج تكأة لتأجيل الشريعة وتمويتها، أو أن يكون تكأة للإبطاء بإقامة أحكام الله وتطبيق شرعه ، أو أن يكون مدعاة للتسويف أو تأجيل التنفيذ[٣]. لأن هذا كله خارج عن مفهوم التدرج الذي أوضحه الشيخ سابقاً .

ولقد فطن الدعاة لهذا التدرج الذي يعد خصيصة من خصائص أي دعوة ، ومهما يكن فإن الاندفاع لا يأتي دائماً بخير ، والتهور لا يعود بالنفع على صاحبه ، والحماسة الزائدة لا تكون أبداً في مصلحة الدعوة ، اسمع إلى كلام عائشة ﷺ وهي تقول : إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة

---

(١) انظر : في فقه الأقليات ص ٥٣ ، وانظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٠٥ وانظر : الخصائص العامة للإسلام ص ١٦٦، ١٦٧، وانظر : مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص١٢٩، وانظر : ملامح المجتمع المسلم ص ١٨٤ .

(٢) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢٨ ، و انظر : مدخل لدراسة الشريعة ص ١٣٠ .

(٣) انظر : السياسة الشرعية ص ٣٢٨ ، وانظر : مدخل لدراسة الشريعة ص ١٣٠ ، وانظر : ملامح المجتمع المسلم ص ١٨٦ .

والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، ولا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الخمر ولا الزنا أبداً [1].

واسمع إلى عمر بن عبد العزيز وهو يقول لابنه وقد استبطأ أباه في إعادة الحقوق إلى أصحابها ومحو المنكر الذي استشرى قائلاً يا أبت : مالك لا تنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق !

فيرد الأب بحكمة الشيخ وفقه الدين ودراسة الواقع وعلم النص : لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين ، وحرمها في الثالثة ، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة فيكون من ذا فتنة [2].

وفي موقف آخر : يأتي الولد إلى أبيه وقد نام فيوقظه من نومه قائلاً : ما يؤمنك في نومك وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟ فيقول عمر : يا بني إن نفسي بطيئة إن لم أرفق بها لم تبلغني ، وإن أتعبت نفسي وأعواني لم أك ذاك إلا قليلاً ، حتى أسقط ويسقطوا ، وإني لأحتسب في نومي من الأجر ما أحتسب في يقظتي ، إن الله جل شأنه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكن الإيمان في قلوبهم [3].

وهذا الفهم أخذه الخليفة الخامس من قوله ﷺ : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » [4].

ويريد الابن مرة أخرى من أبيه سرعة العمل في إماتة البدع ، والتعجل في إقامة السنن فيقول : يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال : رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة فلم تحيها ؟

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٣) عن عائشة .

(٢) انظر : الموافقات الشاطبي ج٢ ص ٩٤ .

(٣) انظر : سيرة عمر بن عبد العزيز ابن الجوزي ص ١٠٦ .

(٤) رواه البيهقي في الكبرى (٣/ ١٨) وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٢٢) .

فقال عمر : رحمك الله وجزاك من ولد خيراً ، يا بني : إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى أردت مكابدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتتقوا عليَّ فتقاً يكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهون عليَّ من أن يراق فيها سببي محجمة من دم ، أوما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحي سنة [1].

إن الولد يريد إتمام الأمر في عشية وضحاها ، لكن الأب الحكيم يريد التدرج حتى لا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .

والإمام البنا رحمه الله أوجب الابتعاد عن التهور وحذر المتحمسة المتعجلين الملحاحين وعلمهم أن من خصائص الدعوة كذلك :

- التدرج في الخطوات .
- وانتظار الزمن .
- وعدم التسرع بالنتائج .
- فلكل أجل كتاب .

وكرر عليهم أن الدعاة الفقهاء: شعارهم في ذلك: الزمن جزء من العلاج.[2]

وكم كان الشيخ واقعيًا حين سأله بعض المسلمين المقيمين في اليابان عن كيفية الدعوة بين اليابانيين وذكر هؤلاء الإخوة ولع اليابانيين بالخمر ، فكان من جواب الشيخ الوصايا بعدة أمور منها :

١- الاهتمام بالأصول قبل الفروع وبالكليات قبل الجزئيات .

٢- عدم الإكثار من التكاليف .

---

(١) انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) انظر : مجلة الدعوة المصرية عدد (٦٧) نقلاً عن المنطلق أ : محمد أحمد الراشد مؤسسة الرسالة بيروت .

٣- الأخذ بمنهج التدرج الحكيم ، ثم قال الشيخ : وليس من الحكمة أن تثير بين اليابانيين قضية تحريم الخمر من أول الأمر ، وتجعل الامتناع عنها شرطاً للدخول في الإسلام ، بل نقبل منهم الإسلام ونتعهد إيمانهم بالرعاية حتى يقوى ويصلب عوده ، إلى أن يصل إلى مرحلة يترك فيها الخمر بإرادته واختياره ، ولو افترضنا أنه ضعف عن تركها وغلبة الإدمان ، فأمره إلى الله وحسبه أن يموت مؤمناً [١].

ولهذا عاب الشيخ على بعض الدعاة الذين انطلقوا بالدعوة في بعض دول أوربا عدم مراعاتهم للتدرج في الدعوة ، وإلزامهم الناس في هذه البيئة بما ألزموا هم أنفسهم به في دولهم العربية والإسلامية . يقول الشيخ : ولكني أرى بعض الإخوة الدعاة لا يراعون التدرج قط فيمن يدعونهم ، فبعد أن سقطت الشيوعية ، في عدد من الأقطار الإسلامية ، مثل البوسنة والهرسك وكوسوفا ، وقد ظلت هذه البلاد ـ وأهلها مسلمون ـ نحو خمسين سنة ، معزولين عن الإسلام علما وثقافة وسلوكا ، فهم يجهلون (ألف باء) الإسلام .

فكانوا في حاجة إلى أن نأخذهم بالمنهج التدرجي الحكيم . فنبدأ بما اتفق عليه المسلمون لا بما اختلفوا فيه ، من العقائد والأحكام .

ولكن بعض الإخوة ـ أصلحهم الله ـ لم يراعوا ذلك ، فبدأوا بشن حملة على عقائد الأشاعرة والماتريدية ، الذين يدين بمذهبهم جمهور المسلمين في المشارق والمغارب ، وتقوم المدارس والجامعات الدينية في أنحاء العالم الإسلامي على تدريسه .

هذا مع أن معركتنا اليوم ليست مع من يؤمن بالله وبلقائه وحسابه ، ولكنه يؤول (يد الله) بأنها القدرة أو يؤول (وسع كرسيه السماوات والأرض) بأنه كناية عن سعة ملكه ، وعظمة سلطانه .

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٥١ بتصرف .

إن معركتنا الحقيقية هي مع الملاحدة الذين يجحدون وجود الله بالكلية ، ويقولون : لا إله ، والحياة مادة .

ثم بدأ هؤلاء الإخوة الدعاة الطيبون يطالبون الرجال بإطلاق اللحى ، وتقصير الثياب ، والنساء بلبس النقاب ، بل بعضهم حمل معه عدة آلاف من (النُّقُب) ليلبسها النساء ، اللائي بينهن وبين الخمار مراحل ومراحل .

ثم إذا كنا في قلب ديار الإسلام والعرب ، مبتلين بحليقي اللحى ، فهل نبدأ بدعوة هؤلاء المسلمين الأوربيين الذين عاشوا نصف قرن تحت وطأة الشيوعية بما عجزنا عن مقاومته في قلب بلادنا العربية والإسلامية ؟

وهل إطلاق اللحية من أركان الإسلام أو من فرائضه حتى نبدأ بها ، ونعطيها هذه الأهمية في الدين؟[1]

سنة التدرج تكمل بسنة أخرى وهي : سنة « لكل شيء أجل مسمى » :

ويؤكد الشيخ القرضاوي بأن سنة التدرج لا بد أن تكمل بسنة أخرى وهي سنة « لكل شيء أجل مسمى » ، وهذا يعني أن أي شيء لا يأت أكله في عشية أو ضحاها ، وأن الثمرة لا تنضج في غمضة عين ، وأن الإنسان لا يبلغ بلمح البصر ، وأن الدعوة لا يأتي أصحابها بالنصر بمجرد الدعوة أو فور الانتهاء منها؛ يقول الشيخ : فإذا كان النبات لا يؤتي أكله إلى بعد أشهر أو سنة ، وبعض الشجر لا يثمر قبل سنوات عدة ، فبعض الأعمال الكبيرة لا تقطف ثمارها إلا بعد عقود من السنين ، وكلما كان العمل عظيماً كانت ثمرته أبطأ كما قيل : أبطأ الدلاء فيضاً أملؤها .

وقد يبدأ جيل عملاً تأسيسياً ذا شأن ، فلا يستفيد منه إلا الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذلك ، ولا ضير في هذا ما دام كل شيء يسير في خطه المعلوم وطريقه المرسوم[2].

---

(١) انظر : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

وينبغي أن يعلم الدعاة بأن العجلة لا تأتي بخير ، وأن الحق لا يعجل بعجلة خلقه ، وكم من متعجلين ندموا على تعجلهم ، وقد قيل : من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه ، لذا يقول الشيخ القرضاوي : فلا ينبغي أن يستعجل الشيء قبل أن يبلغ أجله المقدر لمثله ، فإن الزرع إذا حصد قبل إبانه ، والثمر إذا قطف قبل أوانه ، لا ينتفع به النفع المرجو ، بل قد يضر ولا ينفع[1].

ولقد عالج النبي ﷺ هذه العجلة ووجه العتاب إلى خباب بن الأرت يوم أن جاء شاكياً إلى الرسول ﷺ شده الأذى وكثرة التعذيب قائلاً للنبي : ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا ؟ فجلس النبي ﷺ مغضباً وقد احمر وجهه وعالج هذه العجلة قائلاً : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون [2].

ماذا لو غاب فقه السنن :

إن غياب فقه السنن عن واقع الناس يلحق الضرر بالدعوة والدعاة ، لأن فقدانه يجعل الناس يتطلبون الثمرة قبل نضجها ، وقطف الأزهار قبل انتشار عبيرها ، وتقديم الرجال قبل صلابة عودها ، ودخول المعارك قبل التهيؤ لها ، ولاشك أن هؤلاء المتحمسين كُثُر ، وقد قال الشيخ عن هؤلاء وتسرعهم : فتجد أحدهم يريد ما لا يكون ، ويطلب ما لا يوجد ، ويتخيل ما لا يقع ، ويفهم الوقائع على غير حقيقتها ، ويفسرها وفقاً لأوهام رسخت في رأسه ، لا أساس لها من سنن الله في خلقه ولا من أحكامه في شرعه . فهو يريد أن يغير المجتمع كله : أفكاره ومشاعره وتقاليده وأخلاقه وأنظمته : الاجتماعية والسياسية

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ص ١٠٧ .

(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢) عن خباب .

والاقتصادية بوسائل وهمية ، وأساليب خيالية ، مع شجاعة وجرأة وفدائية لا تستكثر تضحية وإن غلت ، ولا تعبأ بالموت تقع عليه أو يقع عليها ، ولا تهتم بالنتائج أياً كانت ما دامت نيتها لله وهدفها إعلاء كلمة الله تعالى .

ومن ثم لا يستغرب أن تندفع إلى أعمال وتصرفات يسميها بعض الناس « انتحارية » ويسميها آخرون « جنونية » يسقط ضحيتها عدد منهم دون أن يبالوا بذلك شيئاً [1].

ويصور الشيخ حال هؤلاء المتحمسين بأسلوبه الرصين وقلمه البليغ فيقول: يجتمع بعض الفتية المتحمسين إلى أمثالهم ، فيشاركون ويتأملون ، لما انتهى إليه حال المسلمين ، فيؤلفون من أنفسهم جماعة لإصلاح ما فسد ، وبناء ما انهدم ، وهنا يتمنون فيسرفون في التمني ، ويحلمون فيغرقون في أحلام اليقظة ، ويحسبون أنهم قادرون على أن يحقوا الحق ، ويبطلوا الباطل ، ويقيموا دولة الإسلام في الأرض ، بين عشية وضحاها ، ذاهلين عن العوائق والعقبات وما أكثرها! مضخمين لما معهم من إمكانات وما أقلها ! فهم كالرجل الذي قال لابن سيرين : إني رأيت في منامي أني أسبح في غير ماء ، وأطير بغير جناح ، فما تعبير رؤياي؟ ! قال : أنت رجل كثير الأماني والأحلام!

ورضي الله عن الإمام علي حين قال لابنه في وصيته : « . . . . وإياك والاتكال على المنى ، فإنها بضائع النوكى! يعني : الحمقى » .

وما أصدق ما قال الشاعر قديماً :

ولا تكن عبد المنى فالمنى رؤوس أموال المفاليس !

إن الواقع السيئ لا يتغير بالأماني الطيبة ، فإن لله سنناً في تغيير المجتمعات والأقوام لا تحابي أحداً [2].

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٩٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٩١ ، ١٩٢ .